

العمارة العسكرية في العصور الوسطى

بين العرب والصليبيين

لم تكن في غلبة العرب على البيزنطيين في معارك سورية ومصر وشمال افريقية - القضاء الأخير على الإمبراطورية الرومانية الشرقية . صحيح أنه انسلخت عنها أهم ولاياتها في الشرق الوسيط وانكشفت رقعتها وتخلت حامياتها عن كثير من المواقع الاستراتيجية الهامة ولكن مع ذلك صمدت الإمبراطورية نحو سبعمائة سنة أخرى حتى أتت للسلاجقة والعثمانيين القضاء الأخير عليها عام ١٤٥٣ .

ورث العرب تراثاً ضخماً من بيزنطية : رقعة فسيحة من الأراضي التي تمتد من أعلى الفرات ومضيق طوروس في الشرق إلى الصحراء الكبرى في الغرب ؛ أرض واسعة ذات سواحل تنتشر عليها الموانئ الصالحة لرسو السفن الحربية والتجارية ، ومدن كبيرة تنتشر فيها المعابد والكنائس والملاعب والمدارس والأسواق والحمامات ... الخ . وعلوم وفنون كثيرة لم يكن للعرب معرفة بها من قبل ، ثم عرفوا كيف يفيدون منها في حضارتهم الإسلامية .

وقد كان من بين ما ورثه العرب مدن الثغور والحاميات البيزنطية وما احتوت عليه من الحصون والقلاع . وكان الرومان قد اختاروا لها المواقع المهمة التي تتوافر فيها المزايا العسكرية ، فأبقوها على حالها . ولكن هل كان معنى ذلك أن العرب لم يكونوا على معرفة بالحصون وهم في الجزيرة العربية قبل أن تندفق جيوشهم الوثابة نحو بلاد الأعداء في سورية وشمال افريقية .

في أقصى الجنوب ، في حضرموت واليمن ، إلى قلب الجزيرة ، وفي شمالها قامت القلاع العربية الشائخة والحصون المتطلعة ، يمر بها الرواد في سلام وهدوء ، مع أنها كانت فيما مضى مواقع النضال المرير والاستبسال العنيف قديما كانت اليمن بلاد القلاع والحصون أكثر من شيدها الحميميون للحماية ضد غزوات البدو ، ولقد وصفها الهمداني وياقوت وغيرهما ، فيما دونوه عن القصور المحصنة ، ومنها قصر غمدان في صنعاء ، الذي احتوى على عشرين طابقا ، ناطحت السحاب ، إلى أن أصابته يد الخراب والدمار ، ولم يتخلف منه سوى الأطلال .

وعندما بزغ نجم الإسلام ، لم تكن في مدن الجزيرة القاحلة قلاع منيفة ، إلا في بعض الواحات التي قامت فيها المدينة ومكة والطائف ، لأن طبيعة المعارك القبلية لم تكن في حاجة إليها ، إلا أن الطائف كان لها على ما يظن سور يحيط بها ، ومن المحتمل أنه كان هناك بعض الحصون الصغيرة والمعاقل في المدينة وخير . . لقد كان من تقاليد العرب خوض المعارك المكشوفة ، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ م ، إتفق المشركون من القبائل العربية على القيام بهجوم على المدينة ابتغاء السيطرة عليها ، ووجد المسلمون أنفسهم مضطرين لأول مرة ، إلى الالتجاء لنوع من الحصون وكان ذلك على صورة خندق ، أشار بحفره سلمان الفارسي (٦٢٧) .

ونحن إذا أخذنا بأقوال المؤرخ المسعودي ، لوجدنا أن سور المدينة لم يشيد إلا في العام الثالث والستين للهجرة (٦٨٢ / ٦٨٣ م) .
أما اليهود ، فرغبة منهم في الدفاع عن أنفسهم ، قبالة أى هجوم محتمل ، ركزوا جهودهم في حصون قوية منيعة في خير ، وقد منى المسلمون بخسائر فادحة أثناء هجماتهم على المواقع اليهودية ، بسبب ما كان يتساقط عليهم من معابلقهم ، ولولا جرأة الصحابة وإقدامهم واستبسالهم ، لما تحطمت أمامهم أبواب قلعة خير . وبعد سقوط هذا الحصن المنيع وجد اليهود ، أن من العسير عليهم الصمود أمام أى هجوم جديد واضطروا مؤخرا ، إلى

تسلم حصونهم لجيش المسلمين . وقد عثر جنود النبي فيما عثروا عليه من العنائم في حصن « صعب » على « منجنيق » ، وما كادوا يرونه حتى ثبتوا من فائدته وشروها من فورهم في صناعة مثله . وفي حصار الطائف عام ٦٢٧ / ٦٢٨ م رأينا المسلمين يقيمون لأول مرة منجنيقا أمام الحصن الذي استسلم لهم ، قبل أن تبدأ تلك الآلة عملها .

كذلك أفضى احتكاك جيوش العرب بقوات بزنطية في أيام الخلفاء الراشدين إلى ادراكهم أهمية الحصون والأبراج ، ومن ثم عنوا بدراسة فن الحصار وصناعة آلاته الثقيلة . وهكذا بدأ العرب يتعلمون أساليب جديدة في فن إقامة القلاع وبناء الحصون بعد أن اندثرت معارفهم القديمة التي شيدها أسلافهم في جنوب الجزيرة الغربي .

إن العرب ، بعد انطلاقهم للفتح من قلب جزيرتهم ، سارت جيوشهم في ثلاثة اتجاهات ، أخذ أحدها طريقه في اتجاه بيت المقدس . وسار الثاني نحو دمشق ، أما الجيش الثالث فقد اتجه لغزو العراق . . ووصل إلى الفرات عند مكان البصرة تقريبا . ومر هؤلاء الغزاة بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية ، كانت تمتد من رأس خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر وشرقيها في قلب صحراء الشمال ، ولقد أسهب في وصف أطلال تلك القلاع الرومانية لفيف من رجال الآثار ، أمثال برونو وفون دوماسز وسكي في الكتاب « القيم » ، الولاية العربية . وكان من أشهر تلك القلاع ، ادرو ، والدجانية ، وليجون ، وهي من بناء الإمبراطور تراجان وبشير ودمير .

العمارة العسكرية في أيام الأمويين :

وقد استفاد بعض تلك الحصون الرومانية أمراء بني أمية ، فقد حاش الوليد الثاني وقتنا طويلا في حصن الأزرق الروماني الذي شيّد في أيام ديوكليتيان . ومكسيميان وقد أعيد بناء الحصن على أيام الملك المعظم عيسى في عام ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ - ١٢٣٧ م) .

وعلى مسافة نحو عشرين ميلا شرق الزرقاء ، كانت توجد قلعة رومانية
عرفت في العصر الإسلامي باسم قصير الحلابات ، كان قد بدأ في تشييدها
الإمبراطور كاركالا ، عام ٢١٣ / ٢١٧ م ، ثم أكملها جستينيان عام ٥٢٩ م ،
ويقع اليوم بالقرب من قصير الحلابات ، مسجد صغير يرجع بناؤه إلى
النصف الأول من القرن الثامن وقد شيده أحد أمراء الأمويين ، وكان قد
أقام مدة في القلعة الرومانية (١) .

وتعلم الأمويون مزايا تلك الحصون البيزنطية وخصائصها الدفاعية ،
ولاسيما ما كان منها في الأراضي ، التي كانت على الحدود البيزنطية أمام
أنطاكية ومن تلك : المصيصة [(٨٣ - ٨٤ هـ) (٧٠٢ / ٧٠٣ م)] .
والمنقب (١٠٥ هـ) (٧٢٤ م) . وقطر جاش والمؤرة والبقاع وبغراس
(١٠٥ هـ ٧٢٤ م) .

وفضلا عن ذلك ، فقد تأثر الخلفاء الأمويون بأساليبها المعمارية عندما
صمموا قصورهم التي نذكر منها : -

- ١ - قصر الوليد في مينا على بحيرة طبرية (٧٠٥ - ٧١٥ م) .
- ٢ - قصر الوليد في جبل سيس .
- ٣ - قصر هشام (المعروف بقصر الحير الغربي) حول عام ٧٢٧ م .
- ٤ - قصر هشام (المعروف بقصر الحير الشرقي) (١١٠ هـ - ٧٢٩ م)
- ٥ - قصر هشام (المعروف بخربة المفجر) في أريحا .
- ٦ - قصر الوليد الثاني في مشق (٧٤٤ م) .
- ٧ - (المعروف بقصر الطوبة) (٧٤٤ م) .

ومع أن جميع تلك القصور الحصينة شيدت في قلب بلاد المسلمين ، فقد اتبع
في بنائها طراز هندسة القلاع - على الأقل في الخارج . فقد شيدت جدرانها

(١) Creswell: Early Muslim Architecture. Vol. I. pp. 284-87.

من الحجر واكتفتها الأبراج المستديرة ، والمشريات الحجرية لتصويب السهام على المحاصرين المهاجمين . والمشريات (Machicolis) في العمارة عبارة عن اعداد دعائم ، يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة وبين كل دعامين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المهاجمين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، ويضعوا تحتها اللغم . كما يمكن أيضاً أن يصب على رؤوسهم الزيت أو الماء المغلي أو غير ذلك من المواد المؤذية . وقد استخدم العرب المشريات في الحصون قبل الأوربيين ، بمئات السنين ويعود ذلك إلى أيام هشام الأموي حينما بنى قصر الحير الغربي (٧٢٧ م) ثم قصر الحير الشرقي ^(١) . وبني هشام أيضاً قصراً آخر يقع على مسافة أربعين ميلاً شرقى تدمر (بالميره) له مشرستان جميلتان لها فتحتان .

المدره ذوات الأسوار :

وبعد انتهاء أسرة الأمويين في عام ٧٥٠م شيد العباسيون بغداد لتكون حاضرة دولتهم ، وقد كان لنقل عاصمة الدولة من دمشق إلى بغداد أثر كبير كالذى حدث حينما انتقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية من رومه إلى القسطنطينية . فقد كانت دمشق الأموية في ذلك الحين في قلب اقليم سادته الثقافة الهيلينية منذ ألف سنة بين الفتحين الإسكندري والعربي . وقد نتج عن انتقال العاصمة العربية أن اضمحل التأثير الهليني وحل في مكانه مؤثرات فارس الساسانية التي كان العراق يقع في محيطها الجغرافي والثقافي .

وأول ما يقع عليه نظر الباحث من ناحية تلك المؤثرات هو تخطيط بغداد الجديدة ، ولدينا تفصيلات واضحة عن بناء المدينة بفضل ما كتبه اليعقوبي والخطيب نستدل منها على ما كان عليه شكل بغداد حينما شيدها المنصور وذلك بالرغم من زوال المباني الأصلية .

كان تخطيط بغداد على شكل دائرة قطرها نحو ٥٠٠ ر ٢ متراً ، وقد بدأ

Schlumberger, D. in Syria, XX, pp. 366 - 72. (١)

في وضع الأساس في عام ٧٦٢ م وتم البناء عام ٧٦٦ م وكان هناك سوران أحدهما داخلي والآخر خارجي بينهما فاصل يقدر اتساعه نحو ٣٥ - ٤٠ متراً .

أما السور الخارجي فيقدر علوه نحو ١٤ متراً وسمكه ٤ أمتار ، وكان ارتفاع السور الداخلي نحو ١٧ متراً بما فيه الشرفات وسمكه خمسة أمتار ومن أهم ما كانت تمتاز به أبواب بغداد تلك المداخل المنحنية (Bent - entrance) التي تعرض المهاجمين لأخطار الاصابة عند ما يقتحمون مدخل المدينة (١) .

وفي أعقاب بناء بغداد شيد الخليفة المنصور عام ١٥٥ هـ - ٧٧٢ م مدينة الرقا ، وشحنها بالجنود الخراسانية لتأمين الحدود السورية من غارات الروم (٢) ويقول الطبري المؤرخ الكبير أن أبوابها شيدت على نمط أبواب بغداد ، وكذلك الفواصل بين الأسوار الداخلية والخارجية والرحبات والطرق ، وليس هذا فحسب فإن الرقا لم تكن مستديرة الشكل وأن كانت قد أحيطت بسور مزدوج وبخندق .. وقد كان تخطيطها على شكل حدوة الفرس . وكانت سعة الخندق حول ١٦ متراً في أعلاه وتسعة أمتار ونصف في أسفله (٣) .

وتقابلنا عدة عناصر معمارية ذات طابع عسكري في قصر الأخيضر الذي شيده عيسى بن موسى ابن عم السفاح عم المنصور حول عام ١٥٩ هـ - ٧٧٦ م (٤) .

(١) هذا الأسلوب المعمارى أخذه العرب عن الفرس وهو جعل الدخول الموصل من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قائمة أو جملته ملتوية لكي لا يتمكن العدو الذي يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه إلى من فيه ... الخ .

(٢) يعزى إلى الخليفة المنصور تحصين مدن كثيرة على الحدود البيزنطية فقد ذكر البلاذري أنه في عام ١٣٩ هـ (٧٥٦/٧ م) كتب المنصور إلى صالح بن علي يأمره بإعادة بناء وتحصين ملطية وقد نفذ الأمر في العام التالي .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٩ (طبعة أوروبا) .

Creswell : Fortifications in Islam before A. D. 1250., (٤)
p. 109. Proceedings of the British Academy, Vol., XXXVIII.
1952.

ويختلف رجال الآثار حول تاريخ بناء الأخيضر . وهو على العموم قد
شيد فيما بين عامي ٧٢٠ و ٧٧٨ م .

ويقع الأخيضر على مسافة ثلاثين ميلاً غربى كربلاء ويشتمل على موقع
محصن خارجى تقدر مساحته نحو ١٧٠ متراً مربعاً ، ويتصف كل جانب
باب كبير ويلتصق بالجانب الشمالى قصر كبير مساحته حول ١١٣ × ٨٢ متراً ،
ويقدر ارتفاع الأسوار بنحو ١٧ متراً (بدون الدورة التى اختفت) وفى كل
كن من القصر برج مستدير ، ويتخلل السور عشر أبراج موزعة عليه عدا
أبراج الأبواب ، وللأبواب متاريس مدلاة من حديد تسدها عند الضرورة
وذلك برفعها أو خفضها ، وتلك ظاهرة تقابلنا فى القلاع العربية للمرة
الأولى ، اقتبست عن الرومان فى الأخيضر على ما ذكره العلامة كريزويل
فى كتابه المعروف .

محصن الحدود العباسية البيزنطية :

وكان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من سلسلتى
جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة العسكرية الممتازة لوقوعها
عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك فى الممرات
الجبلية الضيقة وقد حرصت كل من الدولتين على السيطرة على تلك الحصون
والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع البيزنطيون منطقة
التخوم التى واجهت أراضي الدولة الإسلامية تحت اشراف رجال حربيين
لقبوا بحكام الثغور . ولما ازدادت حدة الإغارات الإسلامية فى القرن
الثامن الميلادى دعوا تلك المنطقة بحاميات اطلق عليها حراس الحدود ،
وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى
حدود قيليقيا وينقسم قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة وكان
مخصصاً لدفع غارات المسلمين الآتية من شمال العراق .

وأهم حصون ذلك القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية

من سبيسة أو سواس وقصرية إلى أرمنية وشمالي العراق ، ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة . أما القسم الثاني من الخط الدفاعي البيزنطي فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضي البيزنطية ضد الحملات الشامية (١) .

وقامت الدولة العباسية بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية لتحسين حدودها فأقبل خلفاؤها على ترميم المعقل والحصون في منطقة الحدود المطلة على الأراضي البيزنطية . والمعروف أن الخليفة هارون الرشيد كان صاحب الخطوة الهامة في تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف البيزنطي على حدود البلاد الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور وعاصمته انطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم . وفي عام ١٨٠ هـ - ٧٩٦/٧ م أمر الرشيد بأن تشيد وتحصن مدينة عين زربة وحشد فيها لواء من فرسان (٢) وفي عام ١٨٣ هـ - ٧٩٩/٨٠٠ م أمر الرشيد ببناء حصن الهاردنية وهو حصن صغير في جبل اللكام ، من غربية في بعض شعابه وشحنه بالمقاتلة (٣) وكان للحصن سوران وأبواب حديد وقد خربته الروم ثم أعاد عمارته سيف الدولة بن حمدان . ونذكر أيضاً قلاع طرسوس (٤) . وياس ومرعش وملطية وأطنه (٥) .

(١) Bury : History of the Eastern Empire, p. 244, 246.

انظر أيضاً دكتور إبراهيم أحمد العدوي : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية

ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) البلاذري / فتوح البلدان ص ١٧١ (طبعة أوروبا) .

(٣) تاريخ حلب ص ١٨٦ .

(٤) تقع طرسوس على نهر « قره صوه » وكانت قديماً فرسة بلاد قيليقيا ولقد أوصى الخليفة المهدي العباسي ببنائها استناداً إلى التقرير الذي رفعه إليه قائده العربي الحسن بن قحطبة الطائي سنة ١٦٢ هـ - ٧٧٨ م وقد تم بناؤها في زمن الرشيد عام ٧٨٨ م وعندها تولى المأمون عام ٨٣٢/٣٣ م ودفن بجماعها .

(٥) تقع أمانة على نهر سيحان الذي يصب في البحر المتوسط فشيد قلعتها أبو سليم فرج الحادم عام ١٩٣ هـ - ٨٠٨ م .

أسوار القاهرة :

شيد القائد جوهر مدينة القاهرة في عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م وقد أحاطها بسور لم يبق شيء منه اليوم . ولم تصل إلينا عنه معلومات معمارية سوى أنه بنى من اللبن ، وأن عرضه كان يسمح لفارسين بالمرور عليه في اتجاهين متضادين .

وبنى السور الثانى للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م خارج سور جوهر الأول لا على أساسه . وكان مثله مشيداً من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج وقد قام ببناء الأبواب الثلاثة باب النصر - باب الفتوح - باب زويلة ثلاثة اخوه من رجال العادة أتوا من الرها (أورفا) شيد كل واحد منهم باباً ولا تزال تلك الأبواب المنيعة باقية إلى اليوم فى أماكنها . وقد عنى رجال الآثار بدراسة تلك الأبواب دراسة مفصلة يمكن الرجوع إليها فى مراجعها^(١) .

أما سور القاهرة الثالث فقد ابتدأ فى عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ - ٦٩ / ١١٧٠ م . وقد كان حينذاك وزيراً للعاضد لدين الله آخر خلفاء الفواطم بمصر .

فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وصار سلطاناً ندب بهاء الدين قره قوش للعمل فى السور ، فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم - وبدلاً من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط ولكنه توفى قبل أن يتم ذلك .

ونجد تفاصيل عمارة ذلك السور وما اشتمل عليه من أبواب وأبراج ومشريات ومزاغل وزخارف ونقوش فيما كتبه العلامة الأستاذ كرزويل .

(١) الفصل العاشر والحادي عشر فى كتاب Creswell : Muslim Architecture in Egypt.

تعتبر قلعة الجبل من أهم منشآت صلاح الدين العسكرية ، قرر بناءها في عام ٧٢٠ هـ - ١١٧٦ م وتم العمل الكبير فيها عام ٥٧٩ هـ - ١١٨٣/٨٤٤ م.

يتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين : الشمال منه يشبه مستطيلاً ذا أبراج بارزة ويفصله عن المربع الجنوبي حائط سميك ، وأبراج ضخمة . ويخرج المربع الجنوبي عن الشمال مكوناً معه زاوية قائمة . وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يكن في البداية جدران محصنة وكان حول القسم الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً . فإن الصخور محفورة في هذا الجانب إلى عمق كبير بحيث يضاعف ارتفاع الجدار . وبذلك فصل صلاح الدين بين جبل المقطم وبين جزئه الواقعة عليه القلعة بهوة كبيرة ليمنع أى عدو قد يسيطر على جبل المقطم من الاستفادة على إشرافه على قلعته .

ويمرّ إلى صلاح الدين بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقي لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذى يشغله اليوم المتحف الحربى ، وينسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخلفى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

وموجز القول أن صلاح الدين شيد سور القلعة كاملاً وقويا على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به وبفضل نشاط وزيره قره قوش . إذ أنه استدعى لفلسطين فى ١١ مايو ١١٨٢ وخاض غمار حروب طاحنة

خرج منها منصوراً إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس في
أكتوبر ١١٨٧ م^(١).



قاعة الجبل — السور الشرقى

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلاً ، فانتهاز
العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وماله من النفوذ أن يعيد
تحصين المواقع الحربية في سورية ومصر وغيرهما .

ولا تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى واطلال حصون جبل طابور
وقلعة النجم على الفرات شاهدة على جهوده الكبيرة ونشاطه في هذا السبيل .
وينسب إلى الملك العادل في القلعة ، الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة
بالجانب القبلى وهى برج صفطة وبرج قرقيلان وبرج العلو ، والزيادة
التي أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء

K. A. C. Creswell : Archeological Researches at the (١)
Citadel of Cairo. 1924.

الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته
والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور . وقد تمت
أعمال الملك العادل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/٧ م) .

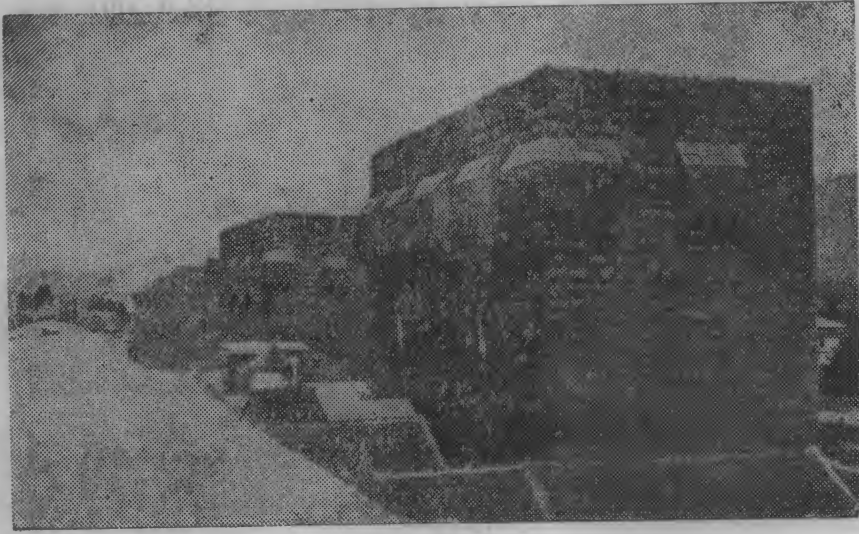
قلعة بصرى :

وفى بصرى حيث كان يقوم مسرح روماني كبير شيد فى القرن الثانى
الميلادى أدرك الأيوبيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشديد عدد كبير
من الأبراج حوله وتحمل هذه الأبراج عددا كبيرا من النقوش الكتابية
للملك العادل توارىخها كالآتى :

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ - ٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م)
و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) .
وهناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) .
وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل أحد أبراج العادل فى قلعة الجبل ،
ويشتمل على قاعة كبيرة تعلوها قبو وقد شيدت القاعة بالاسلوب المتعاقد .

قلعة دمشق :

وقلعة دمشق كما هى عليه اليوم من أعمال العادل أيضاً ، بدأ عمارتها تاج
الدولة تتش عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) الذى جعلها دار الإمارة ، واهتم
بتعميرها السلطان نور الدين ثم الملك العادل . وتمتد تواريخ نقوشها بين
عامى ٦٠٥ هـ و ٦١٤ هـ (١٢٠٨ - ١٢١٧ م) ويقوم فى جانبها الشرقى
والشمالى مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة
(Bent-entrance) وتعلو جميع أبواب القلعة المشرييات الدفاعية .



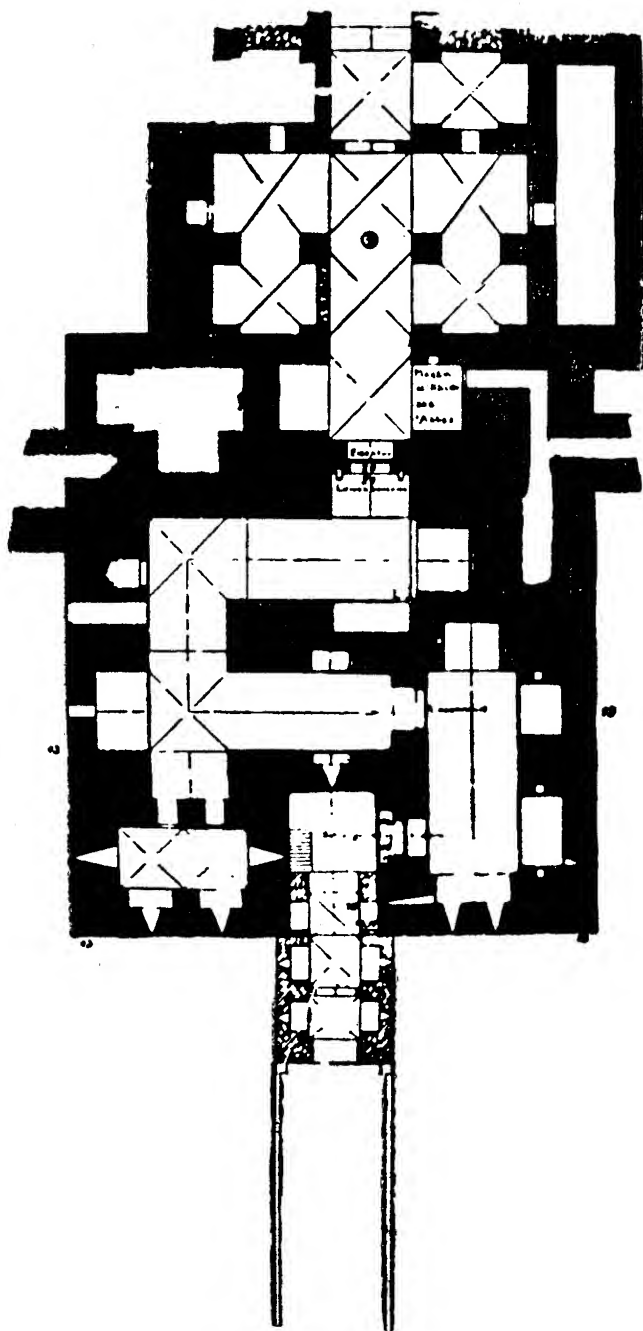
قلعة دمشق

قلعة جبل طابور :

وقد حصن العادل قبة جبل طابور عام ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) ولم يبق إلا مخلفات قليلة من حصونه اليوم، وفي برج خرب نلاحظ فتحة للسهم (مزغل) على شكل حرف - v - يشبه في تفاصيله المزاغل الموجودة في قلعة الجبل والتي تنسب أيضاً إلى العادل .

قلعة حلب :

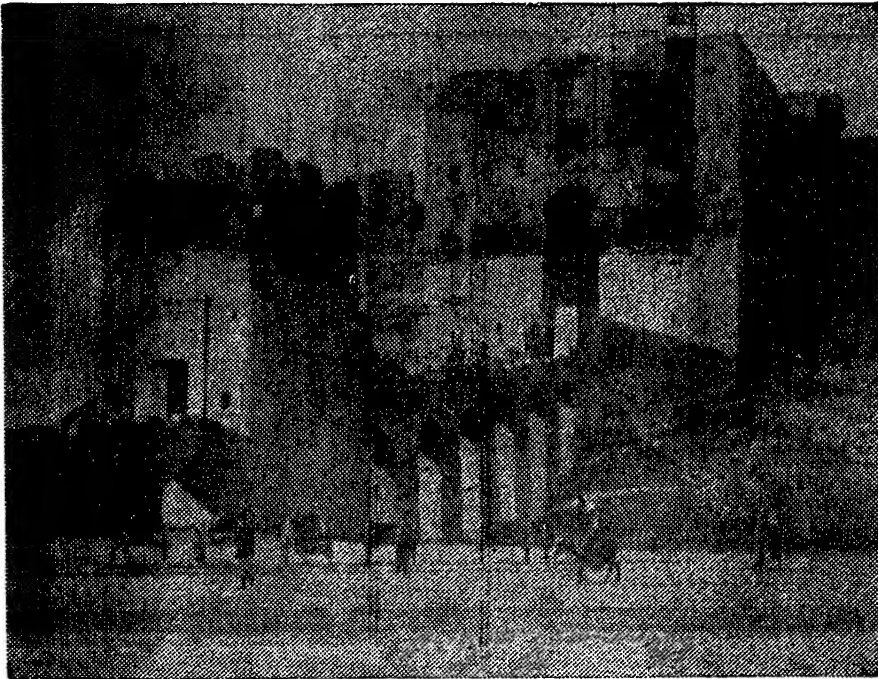
قلعة حلب من أهم آثار سورية الإسلامية وهي تهنض في وسط مدينة حلب على تل مستدير الشكل غطي بزلاقة من الحجارة ، ويصل إلى القلعة بواسطة قنطرة عبر خندق وتكون القنطرة من سبعة عقود .



تخطيط مدخل قلعة حلب



قلعة حلب : باب الحيات



المدخل الرئيسي الجنوبي لقلعة حلب

ندخل إلى القلعة بعد أن نمر عبر مدخلها ذى الأركان المستديرة ، وعلى هذا المدخل نجد نقشاً للسلطان الغورى يشتمل على تاريخ عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧)^(١) ثم نعبّر الخندق على جسر (قنطرة) عالية إلى أن يقابلنا برج المدخل الكبير (عرضه ٣٠ متراً وعمقه ٣٥ متراً) الذى يمر فى وسطه المدخل الرئيسى وهو مغطى بقبو على شكل نفق ، ثم ننثنى إلى اليمين لنجتاز المدخل الخارجى الرئيسى فيقابلنا باب من الحديد ثم ننثنى إلى اليسار وإلى اليسار مرة أخرى ونعبّر باباً آخر من الحديد ومنه إلى ممر مقبب فنجد أنفسنا فى الجانب الآخر من البرج وندور يمينا مرتين ثم ننثنى إلى اليسار ونجتاز باباً حديدياً ثالثاً فنجد أنفسنا فى الجانب الداخلى للبرج (بعد خمسة منحنيات) .

وقد ذكر ابن الشحنة نقلا عن ابن شداد أن الملك الظاهر غياث الدين غازى هو الذى غطى سفح التل بالحجر وشيد بابها وكان ذلك فى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣/٤) وعمل الملك الظاهر لهذا الباب جسراً (قنطرة) ممتداً منه إلى البلد . وبني على الباب برجين وعمل للقلعة خمس دركات وجعل لها خمسة أبواب من الحديد ، وبني فيها أما كن للجد وأرباب الدولة .

قلعة النجم :

وقلعة النجم حصن مستدير مشيد بالحجارة الجميلة ومقام على تل مستدير يحمى قنطرة عبر الفرات بين جرابلس وبالس وهى تشبه من بعض النواحي قلعة بصرى ويدل النقش الموجود على المدخل أنها من بناء الملك الظاهر فيما بين ٦٠٥ و ٦١٢ هـ (١٢٠٨ - ١٢١٥ م)^(٢) .

Sobernheim : Der Islam, XV, p. 169.

(١)

Wiet et Hauteceœur : Les Mosquées du Caire.,

(٢)

pp. 123 - 4.

العمارة العسكرية عند فجى والصليبيين :

عندما جاء الصليبيون إلى الشرق في أخريات القرن الحادى عشر وجدوا فيه عمارة عسكرية أكثر تقدما عما كانت عليه في بلادهم بأوروبا حيث كان عصر بناء القلاع بالأحجار قد أوشك على البداية .

ويرجع تقدم العمارة العسكرية في الشرق إلى الرومان ، فقد عنوا بدراسة مشاكل الدفاع العسكرى كعلم له قواعد وأساليب واستفاد البيزنطيون بهذا التراث وعملوا على إنعاشه وتطويره لأن سياستهم العسكرية كانت دفاعية خلال مدة وجودهم في الشرق الوسيط ولا سيما في أهم أقسامه أى سورية ضد غارات الأعراب من الصحراء — ولذلك أكثروا من بناء الحصون والقلاع في الأماكن الهامة ... فلما جاء العرب إلى سورية وانتصروا على البيزنطيين كانت الناحية الدفاعية أولى الأشياء التى عنوا بها . وتعلوا أشياء كثيرة من أساليب البيزنطيين كما رأينا .

ولكن مشا كل البيزنطيين الدفاعية لم تكن صورة طبق الأصل لمشاكل الصليبيين القادمين الجدد . فقد افترض البيزنطيون أن القوة العددية للجند لا تعتبر عندهم مشكلة بالقدر الذى نجدها عند الصليبيين الذين يستمدون الرجال من بلادهم البعيدة . فالبيزنطيون تسندهم بسرعة بلادهم المجاورة بما يتطلبه الموقف العسكرى .

والقلعة البيزنطية في الشرق لم تكن أكثر من معسكر محصن . صم تخطيطها على اعتبار أن أسلحة العدو أضعف من أسلحتهم ، وكان البيزنطيون يرون أعداءهم العرب أضعف منهم في فنون الحصار وأسلحته . ولذلك كانت جدران حصونهم غير متينة واستعانوا بالحنادق العريضة أو العميقة ليحرموا العدو جلب أبراج الكباش وسلام الحصار إلى مسافة يستطيع منها قذف الحجارة والسهام على جنود القلعة .

وكان البيزنطيون يشيدون في القلاع - الأبراج ذوات الميول وينبنونها على مسافات متفاوتة من جدران القلعة ، ولم تكن تلك الأبراج لحماية الأسوار بل لكي يتيسر لرماة القسي ورماة النقط مدى طويلاً لاختراق خطوط العدو المهاجمة وكان يشيد في وسط السور برج مرتفع يخزن فيه المؤن والأسلح والعتاد وليس لكي يكون آخر ملجأ للجنود يدافعون فيه عن أنفسهم .

ونحن إذا استثنينا بعض القلاع التي شيدها البيزنطيون عند الحدود الأرمنية حيث كان يقوم بشئون الدفاع أمراء شبه مستقلين فقد استخدمت القلعة كمكان إقامة دائمة . لقد كان الأمير جندياً محترفاً ترك زوجته وأولاده خلفه في المدينة يعيشون عيشتهم الرتيبة .

ومع أن البيزنطيين كانوا يعنون باختيار الأرض الصالحة لبناء القلعة ، فلم تكن صعوبة الوصول إلى موقع القلعة (من ناحية المهاجم) هي أولى العوامل التي اهتموا بها . فقد كانت المزية الأولى الرئيسية للقلعة أن تستخدم كشكنة مسلحة . وكان من العسير أن نطلب من الجندي كلها أمر بالتحرك أن يجهد نفسه صاعداً أو هابطاً^(١) ونلاحظ أن العرب قد اتبعوا أساليب البناء البيزنطية وإن كانت طبيعة جيوشهم تعتمد على الهجوم المفاجيء وسرعة الحركة ولذلك لم يعنوا كثيراً بمشاكل الدفاع الكبرى إلا في بعض الظروف^(٢) .

الصليبيون ودراسة أساليب الفروع :

عنى الصليبيون بدراسة أساليب العمارة العسكرية في خلال سيرهم الطويل في رحلتهم من الغرب إلى الشرق ، وقد أفادوا حقاً من قوة

Deschamps : Le Crac., pp. 45 - 57., Eberselt Monuments (١)
d'Architecture Byzantine, pp. 101 - 106.

Je ddan : Crusader Castles, pp. 22 - 6.

(٢)

ملاحظتهم ، ولكن كما قلنا كان موقفهم (من النواحي الإدارية والتعبوية على الأقل) مختلفا عن البيزنطيين أو العرب ، فقد كانت شكرام من نقص عدد الرجال دائمة . ولم يستطيعوا الاحتفاظ بجحافل ضخمة العدد في حامياتهم المبعثرة في مملكتهم . . فلا غرو إذا لاحظنا متانة قلاعهم وسهولة وضعها من ناحية الدفاع عنها . وقد عنوا كثيرا باختيار المواقع المناسبة التي تتوافر فيها المزايا العسكرية الدفاعية . ولذلك نراهم قد استخدموا كل منحدر وكل صغير إلى أقصى حد . ولما كان من الصعب استعمال جنود الكشافة فقد استعاضوا عنهم بمبدأ تبادل الرؤية ، بمعنى أن تكشف كل قلعة ما يجاورها أو يتلوها من الحصون وذلك لغرض تبادل الأنباء والتعليمات وتيسير المواصلات .

وقد بالغ الصليبيون في زيادة سمك جدران القلاع وعلى اطالة علوها وذلك لكي تقاوم الهجمات المباشرة والاسلحة الفتاكة ولم يعتمدوا على منشآت الدفاع الخارجية التي تقام عادة أمام القلعة وذلك اقتصادا للجند .

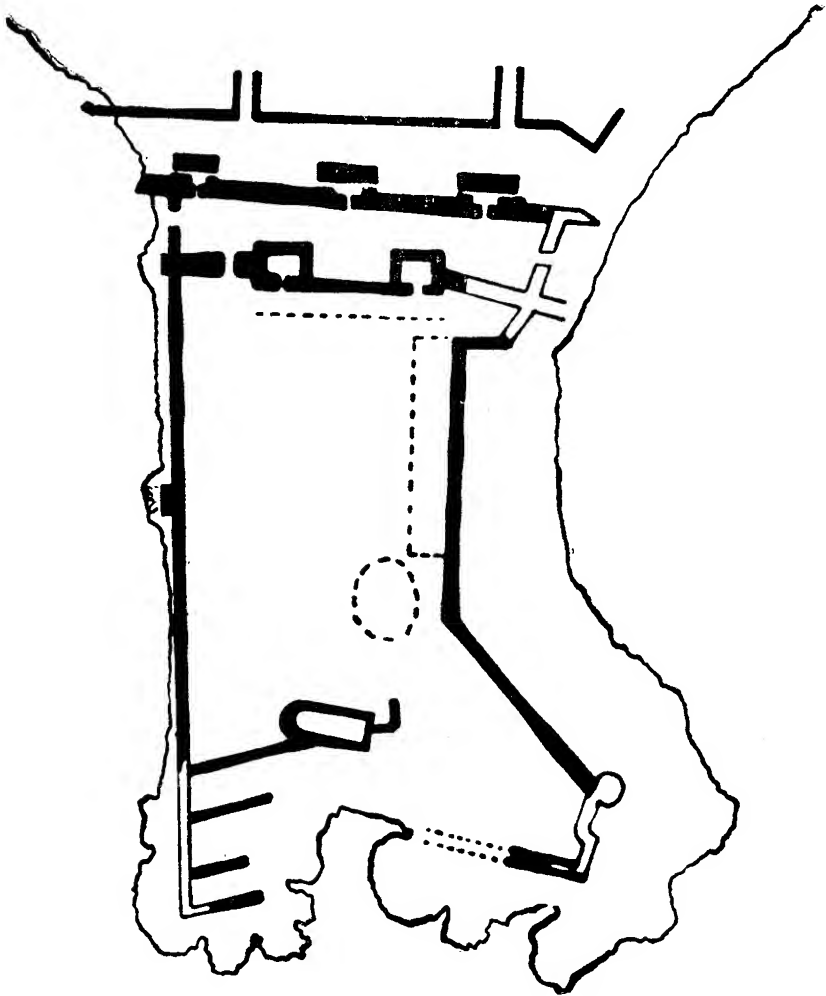
وفي الوقت نفسه كانت تزدى القلعة وظيفه المركز الرئيسى للأمر أو الملك أو نائبه والمقر الإدارى للحكومة .

ولا يخفى أن الفرنج كانوا قد جلبوا أساليبهم الأفطاعية ولم ينسوا أنهم أجناب يحكمون بلادا يختلف أهلها عنهم .

وكانت المساحة التي تشغلها القلعة كبيرة وتسمح بوقاية قطعان الحيوان والغنم أثناء غارات العدو العديدة . والحقيقة أن القلعة لعبت دورا أكثر أهمية للفرنج مما لعبته عند العرب والبيزنطيين^(١) وفي الغرب المعاصر للصليبية كان القصر القلعة في دورها البسيط عبارة عن حصن مربع قوى البناء كان يطلق عليه اسم (Donjon) وقد بلغ أسلوبه في عهد النورمان

Desehams : Le Crac, pp. 89 - 103. (١)

إلى ما يقرب من الكمال . ولكنه كان لا يفي باحتياجات حاميات الصليبيين
 أن يعملوا بجهد لتحسين طراز قلعتهم لتؤدي لهم أجل الفوائد ، فاستعاروا
 أفكاراً كثيرة من أسلافهم البيزنطيين ، واقتبسوا مما شاهدوه في الشرق
 ظاهرة المشرييات ، كما اتفَعوا بأسلوب توزيع الأبراج على امتداد سور
 القلعة ولم ينقل هؤلاء ما شاهدوه بدون تعديل بل نراهم يفضلون الأبراج
 المستديرة لأنها تعطي مدى أو سع للاضرار بالعدو ، ولم يتمسكوا بالأبراج
 المربعة التي فضلها البيزنطيون .



قلعة الحاج

أسرع الصليبيون عقب نزول جيوشهم في البلاد المقدسة في إصلاح أسوار المدن التي تهدمت وشيدوا القلاع لحراسة أماراتهم ، واستخدموها كما قلنا مرا كز لإدارة شئون البلاد إلى جانب واجبها في الدفاع ، وقد بدأوا عملهم في المدن التي احتوت على قدر كاف من الحصون . . كانوا يشيدون قلاعهم على حافة المدن لكي تضطلع بالدفاع المستقل عن المدينة . وقد بنوا أول قلعة يمكن تأريخها بالدقة — قلعة الكونت ريمون على جبل الحاج ، عام ١١٠٤ م لكي تكون مقرا لرئاسة جيشه وذلك بينما كان منهمكا في حصار طرابلس .

ومن المحتمل جدا أن تكون قلاع أمراء الجليل في طبرية وتورون قد شيدت في العصر نفسه .

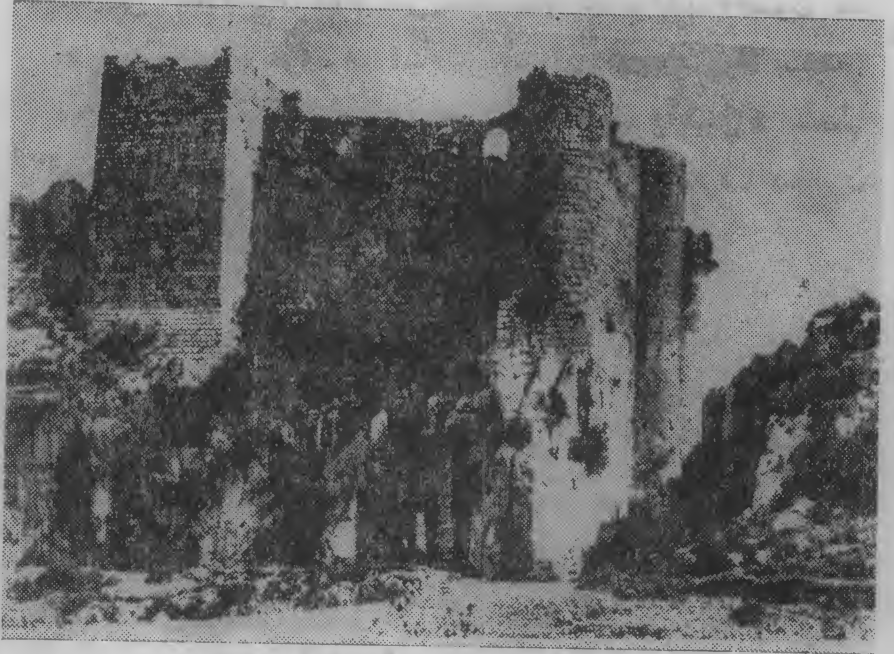
فروع الصليبيين في أوائل القرن الثاني عشر

كانت قلاع الصليبيين في أوائل القرن الثاني عشر صغيرة كقلعة بلفوار مثلا ، شيدوها بالأسلوب البيزنطي ويحيط بها سور خارجي يكاد يكون مربع الشكل تقريبا وتكتنفه الأبراج ويقوم في وسطها حصن عال (Keep) كان يؤلف في المواقع قلب الدفاع ، وقد اهتموا كثيرا باختيار الموقع ليكون صعب المنال ولكي يستغنوا عن بناء الأعمال الدفاعية الخارجية . أما أسلوب البناء فقد جمع بين المتانة والمنعة .

لقد بدأ العصر الكبير الأول في بناء القلاع الصليبية في سورية في العقد الثاني من القرن الثاني عشر في أيام حكم الملك بلدوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١ م) واستمر على أيام فولك ، حينما شيدت قلعة كرك مؤاب^(١)

(١) شيد الصليبيون كرك مؤاب في ما بين ١١٤٠ - ١١٤٣ م وتمتاز بموقعها العسكري الهام شرق البحر الميت وشيدها ابن النابلسي رئيس سقاة الملك فولك .

وبوفورت^(١) وإلى الشمال قلعة صهيون^(٢) وكذلك تلك المجموعة من القلاع الصغيرة نسيا في بلاد اليهودية مثل قلعة الحارس الأبيض^(٣) وقلعة



قلعة صهيون في سورية

ايلين^(٤) ونرى الصليبيين قد انتفخوا في قلعة صهيون (وكأنه اصلا من بناء البيزنطيين) بالحنق المحيط ببعض اجزائها وحولوه إلى هوة عميقة

(١) بدأ الفرنج بناء قلعة بوفورت عام ١١٣٩ على قمة أحمـد الجبال المشرفة على نهر اللباني وهي تبعد نحو ٢٤ ميلا من بيروت وقد انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين في ١٥ أبريل ١٢٦٨ م .

(٢) تقع قلعة صهيون على حافة تل مرتفع بين وهنتين عميقتين وقد شيد على هذا المكان الفينيقيون والبيزنطيون قلعة ما زالت بعض أجزائها باقية من مباني القلعة الصليبية وقد أضاف الصليبيون إليها الأسوار الضخمة والأبراج المنيعة لتزداد منعة وتعتبر صهيون والمرقب وحصن الأكراد من أهم قلاع الصليبيين .

(٣) تعرف هذه القلعة باسم تل الصفي بناها الملك فولك فيا بن عامي ١١٣٧ — ١٤٢ وهي تؤلف مع ايلين وبيت جبلين حلقة دفاعية حول عسقلان في الجنوب الغربي من فلسطين .

(٤) شيد رجال الاسبتارية قلعة ايلين (يهنا) عام ١١٤١ م .

ضيقة يبلغ عمقها نحو تسعين قدماً قطعوها في الحجر الصلب . ولقد أدرك الصليبيون أهمية موقع صهيون فزادوه مناعة . ومن ذلك أنهم استخدموا المتاريس المدلاة وهى أبواب من حديد معلق على بوابات الحصون عند الضرورة فتسدها وتعرف هذه المتاريس بأسم (Portcullis) وقد استخدمها الرومان منذ القدم فى قلاعهم وفى حصن قصر الشمع ببابليون كما استعملها العرب فى حصن الاخضر كما ذكرناه من قبل . وقد عرف الصليبيون من العرب المدخل الذى على شكل زاوية قائمة .

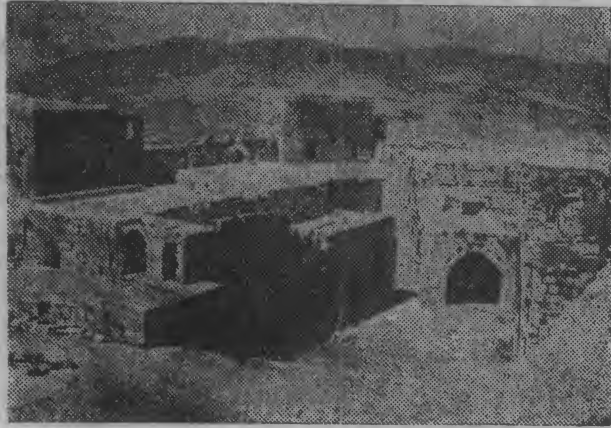
الفروع الصليبية الكبرى :

أما القلاع الصليبية الكبرى فكانت مبانيها أكثر تعقيداً ، فإن قلعة كرك الفرسان (حصن الأكراد)^(١) مثلاً شيدت لكي يعيش فيها الأمير وأسرته وجنوده والكتبة ورجال الإدارة الذين يعملون فى إمارته وفى مثل تلك القلعة — أى قلعة القرن الثانى عشر كان الحصن (Keep) ومساكن الإقامة تقام فى غالب الأحيان فى أبعد أركان السور ليتمكن الدفاع عنه بسهولة أما المخازن والمصلى فقد شيداً فى الفضاء الأوسط داخل القلعة ، بينما اشتملت الأبراج الأخرى المشيدة ضمن مباني السور على ثكنات الجنود وأماكن العمل وكان شكل مخطط القلعة يختلف تبعاً لشكل الأرض المقامة عليه القلعة ومساحتها . وقد كان الحصن (Keep) عبارة عن برج بسيط مربع الشكل على النمط النورمانى له فى غالب الأحيان مدخل واحد . شيد بالحجارة

(١) أم الحصون الإسلامية الصليبية فى سوريا ، يقع على مسافة ٢٤٠ كم من دمشق و ١٤٠ كم غرب طرابلس (لبنان) . ويشتمل على مجموعة فادرة المثال من أعمال الدفاع والأبراج المستديرة والجدران والمغريبات والأقنية التى تحت الأرض والزلافة الخارجية فضلاً عن مناعة الموقع العام . وقد نشبت حوله معارك عنيفة لاعد لها مبنية الاستيلاء عليه . وكان آخرها ذلك الحصار المستعصم بين قوات الطاهر بيبرس وفرسان الاستبصارية الذين كانوا يدافعون عنه إلى أن سقط فى قبضة المسلمين فى ٨ أبريل ١٢٧١ م .



قاعة الحصن — حصن الأكراذ



حصن الأكراذ من الداخل

القوية وبأسلوب بسيط وأن زخرفت أحياناً مساكن الإقامة والمصلى .
ومن سوء الحظ أنه لم يصلنا شيء من تلك الحليات والزخارف المعمارية التي
كانت توجد في قلاع القرن الثاني عشر أما القلاع التي بقيت في أيدي أصحابها
من المسيحيين بعد عصر صلاح الدين الأيوبي فقد أعيد زخرفها وتجميلها
في القرن الثالث عشر وما وقع منها في قبضة المسلمين أصابها التغير والحذف
والإضافة . وما تبقى بعد ذلك آل إلى الخراب على مر السنين^(١) .

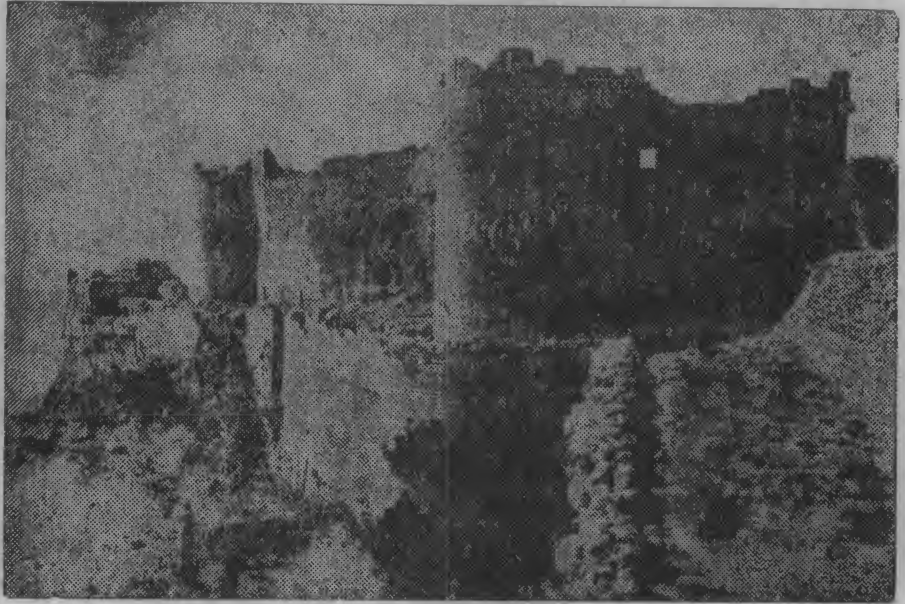
العمارة العسكرية في القرن الثاني عشر

وبتقدم القرن الثاني عشر طرأت تغييرات رئيسية في تخطيط القلاع
الصليبية فقد نظر بعين الاعتبار إلى أهمية موقع الحصن (Keep) وهو امنع
اجزاء القلعة وأقواها ورؤى أن يقام في اضعف قطاعات السور ، وكان
الحصن حينذاك قد تحول شكله من المربع إلى المستدير وذلك لاسباب ذكرنا
بعضها ومنها مقاومة السطح المستدير طلقات المقذوفات بشكل مؤثر كما أنه
زيد عدد الأبواب العادية والسرية (Postern) في الأسوار .

ونلاحظ أن القلاع التي شيدها الصليبيون في القرن الثاني عشر أخذت
في الضخامة ولا سيما حينما بنى رجال الطوائف الدينية قلاعاً لهم أو عند
ما كانت تؤول إليهم قلاع النبلاء والأمراء وكانت قلاع تلك الطوائف
لاتأوى النساء ومع أن مساكن كبار القادة والموظفين (داخل القلاع)
اشتملت على جميع وسائل الراحة فقد احتوت أيضاً على كل ما تتطلبه
الضرورة العسكرية . لقد كانت القلاع الكبرى مثل كرك أثليت عبارة عن
مدن عسكرية تسع عدة الاف من المحاربين والخدم والتابعين .

(١) راجع الوصف المفصل وتخطيطات قلعة كرك مؤاب والعبية في بانياس في كتاب :
Dechamps : La Défense du royaume du royaume de Jerusalem.
Paris 1939.

ونشاهد أنه كان من النادر استخدام الأسوار المزدوجة في قلاع
الأسلوب المشترك المركز (Concentric) - صحيح أنه كان لقلاع طائفة
الاستراتيجية الكبرى مثل حصن الأكراد والمرقب اطار مزدوج (أى سور)



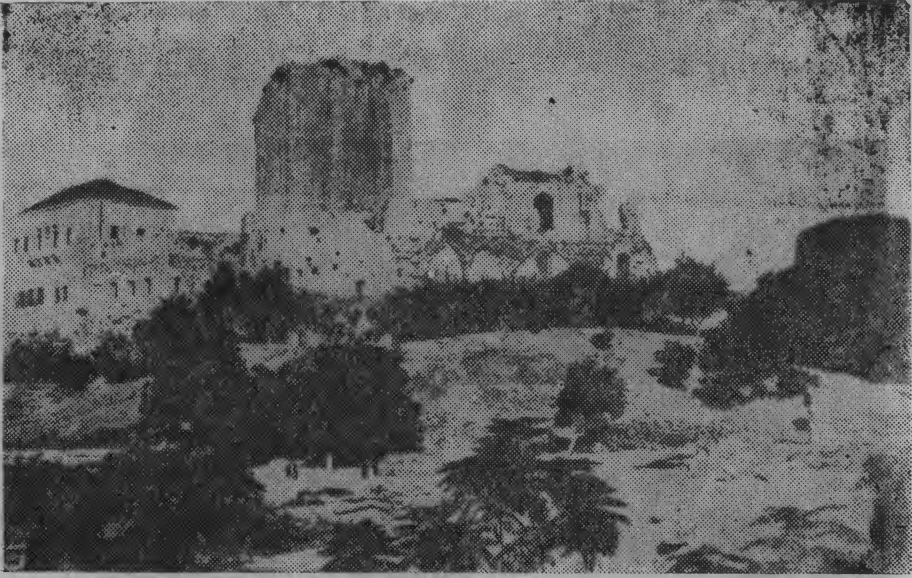
قلعة المرقب في سورية

وقد هذه الظاهرة طائفة الداوية . وقلدوه في بناء قلعة صافيتا^(١)
ولكنهم فضلوا السور المفرد كقاعدة عامة ولذلك نلاحظ أن قلاعهم
الهامية التي شيدها في القرن الثالث عشر كطرطوسة^(٢) واثليت^(٣) اتخذت

(١) من أقدم القلاع التي شيدها الصليبيون (٢ - ١١ - ١١٠٤) لوقايه المخاضة
التي توجد في أقصى شمال نهر الأردن .

(٢) طرطوسة من أجل القلاع التي شيدها طائفة الداوية على ساحل سورية ولها خيطان
للدفاع .

(٣) تقع فلفو اثيت على الساحل وتبعد نحو ١٣ ميلا جنوب غرب حيفا وهي من أجل
العمائر العسكرية في فلسطين ، بناها الداوية عام ١٢١٨ م وكانت مقر رئيس طائفتهم وقعت
في قبضة السلطان الملك الأشرف بعد سقوط عكا في عام ١٢٩١ م .

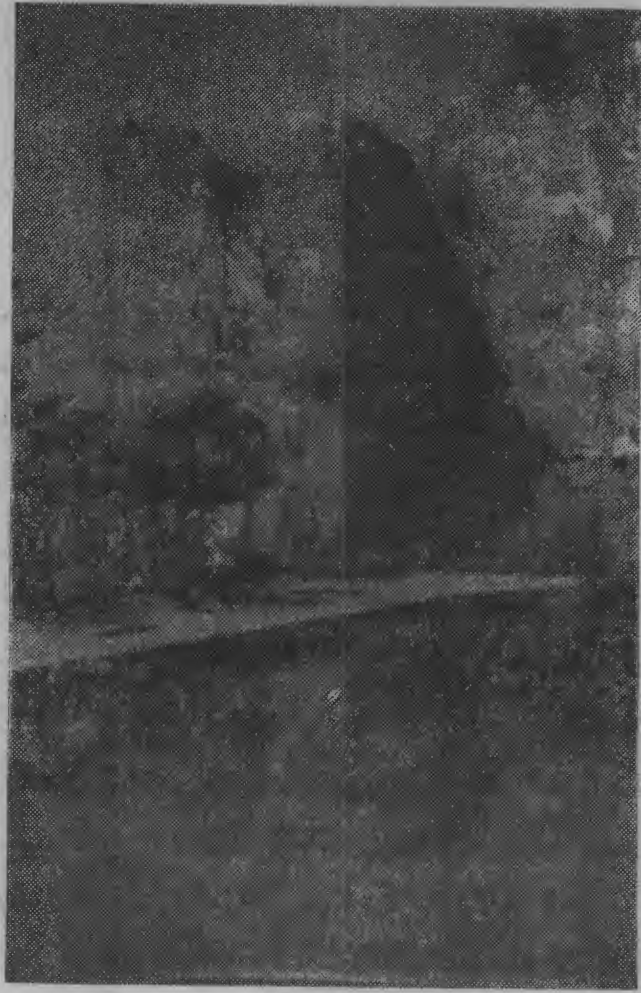


قلعة صافيتا (البيضاء)

الأسلوب الباكر ، لكننا نشاهد في الحالتين أن الأجزاء المرتفعة من الأسوار هي التي كانت تلاصق البحر - كذلك قلعة مونتفورت^(١) التي شيدها رجال التيتون كانت ذات سور مفرد . ولم تكن فكرة السور المزدوج جديدة على فن العمارة العسكرية في سورية فإن أسوار القسطنطينية البرية التي شيدت في القرن الخامس كانت مزدوجة ، وحينما شيد المنصور مدينة بغداد في القرن الثامن أحيطت بسور مزدوج ولكن رجال الاستبارية سبقوا غيرهم في تطبيق هذا الأسلوب في قلعة واحدة مع أنه يفضل استخدام السور المزدوج في قلعة كبيرة^(٢) و ضخمة .

(١) قلعة مونتفورت (Mons Fortis) أو ساركبنورج شيدت فيما بين ١٢٢٧ و ١٢٢٩ م في موقع قاحل ومنيع يصعب الاستيلاء عليه .

(٢) Rey : Arch. Militaire pp. 70 - 72. Fedden : pp. 28 - 9.



قلعة طرابلس من الداخل

تلك هي نظرة شاملة عن أحوال أهم القلاع الإسلامية والصليبية وأهم عناصرها المعمارية أرجوا أن أكون قد وفقت في عرضها .

عبد الرحمن زكي